سعاد الصباح

بقلم الدكتورة: فاطمة يوسف العلي

نقول يارب، نقول يا الله، نقولها وندعوه سبحانه مجردا من الألقاب، ولله المثل الأعلى، فهل يكفي أن تحمل شهادتي هذه اسم سعاد الصباح، مجردا، عنوانا لها؟، أليس كافيا بالنسبة لي، وبالنسبة لكم، وبالنسبة لمثقفينا على طول عالمنا العربي وعرضه، وعالمنا الخارجي الأوسع، أن يكون اسم سعاد الصباح رمزا للبذل، ودليلا على الوفاء والانتماء، ومعيارا لرقي الإنسان وسمو خلقه وعنوانا للنبل والنبلاء؟.

كم هي الكتب والدراسات والأبحاث العلمية والنقدية التي صدرت عن سعاد الصباح كشاعرة وكاتبة، فقد كتبت قصائد الشعر والأغنية، كما كتبت النثر والدراسات العلمية، وكتبت في القومية والوطنية، وكم هي الأقلام التي تناولت البناء اللغوي في كتاباتها المتعددة والمتنوعة، إلى جانب الظواهر الفنية الكثيرة التي قام عليها هذا البناء، كالحب والرومانسية وصورة المرأة والأمومة، وصورة الواقع والتمرد الأنثوي على القبيلة ذات القانون الذكوري الذي لا يجوز الخروج عليه، وكذلك ظواهر الزمن والممارسة الإبداعية والرثاء والوطن والانتماء، وغير ذلك من الظواهر والتجليات والتيمات التي سبحت في فلكها شعرا ونثرا.

وكم هي الكتابات التي تناولت المشاعر الإنسانية التي أحاطت بها، والقلوب التي تعلقت بها وهي تغمس قلمها في مداد من قلوبنا ومشاعرنا، وآمالنا وأحلامنا وطموحاتنا، ثم تعبر بإنسانيتها الرفيعة وموهبتها عن لحظاتنا الإنسانية السعيدة والتعيسة، وعن قضايانا المحلية والعربية، معبرة في الوقت نفسه عن مواقفها

الإنسانية والوطنية والثقافية الثابتة، مكافحة بما تملك من حب الوطن، ومن النبل الإنساني، لتعيد للمرأة احترامها، وللوطن مجده، وللإنسان روحه وإنسانيته، وكم وكم وكم.

كم تردد اسم سعاد الصباح بالحب على الألسنة، لدرجة يمكن أن نتخيل معها أنه لم يعد ما نقوله عنها، لكني أتوقف معكم اليوم، في شهادتي عن سعاد الصباح، أمام تلك اللحظات والأيام والليالي التي امتلأت عبقا وسحرا ونشوة، ونحن نطالع قصيدة كتبتها سعاد الصباح، أو نستمع إلى أغنية غزلتها سعاد الصباح من نسيج وجدانها الألق، أو مقالة نثرية نثرت سعاد الصباح حبات لؤلؤها، أو دراسة علمية تؤكد خبرتها في ميدان الاقتصاد، أو مداخلة علا فيها صوت سعاد الصباح، فكشفت عن معدنها الأصيل وثقافتها الواسعة، ووطنيتها وولائها لوطنها العربي، وهمومها بأوجاعه المتعددة.

لقد عرفت سعاد الصباح تغريدة هزت أعماقنا، مجسدة براءة ملامح وجهها الملائكي، ووداعته التي تنطق بما يسكن قلبها من حنان للجميع، عرفتها كمفكرة ومثقفة، وكشاعرة، وكأنثى متميزة وأصيلة، لتتشكل في النهاية ملامح امرأة عربية استثنائية في قدراتها الإبداعية، الفكرية والعاطفية، وفي مواقفها الوطنية، وفي إنسانيتها الرفيعة وأخلاقياتها النبيلة، وهذه الملامح تشكل أمامنا بدورها صورة لامرأة نموذج، يزينها الخلق الحسن والتواضع الجم.

وأصارحكم القول، ربما أجد في الأمر صعوبة، وأنا أتحدث عن سعاد الصباح، وأنا لست متخصصة في الشعر، بالرغم من أن بداياتي مع القلم والكتابة، كانت مع والشعر، والسرد القصصي والروائي لأنفس فيه عن مكنونات نفسي، ومن هنا لن يكون في نيتي أن أقدم ـ عبر هذه الشهادة ـ دراسة عن شعر سعاد الصباح أو نثرها، ولن يكون في نيتي أن أكتب عن مواقفها الوطنية أو العروبية أو الإنسانية

بشكل عام، أو عن انتمائها الأسري وموقعها الاجتماعي، أوعن آرائها في القضايا الفكرية والثقافية والمجتمعية التي اتسمت معها بالعفة والتعقل الخالي من التكلف، وإنما وددت أن أكتب . فحسب . عن محبتي لها .

نعم، لقد أحببت سعاد الصباح، كإنسانة وكمثقفة وكمبدعة، وقبل هذا كله، كامرأة كويتية عربية تعد نموذجا مشرفا لكل كويتي، وقدوة تحتذى لكل امرأة كويتية، وفي هذا الحب إجابة على السؤال الذي يداعب قلوبنا جميعا: كم أنت مثمرة يا كويتنا الحبيبة.

أحب في سعاد الصباح تلك الشجرة التي تتفرع منها الشاعرة والمفكرة والخبيرة بعلم الاقتصاد، وأحب فيها الوردة التي تورق ثمارها وتنشر شذاها في كل تلك التخصصات والاهتمامات، أحب فيها إنسانيتها الرقيقة أو رقتها الإنسانية، كما أحب جرأتها الإبداعية والأدبية، أحب فيها الإخلاص والوفاء لوطنها الكويت، ولمبادئها السامية ومواقفها. أحب فيها صدق كتاباتها وما يخطه قلمها، ورقة شعرها وقوته وعمقه وثورته على تقاليد القبيلة وقيودها، أحب فيها رفضها لأن ينظر المجتمع إلى المرأة بوصفها جسدا جميل التكوين فحسب، أو وجها حلو الملامح ورائع القسمات.

أحب فيها المرأة التي لم تركن إلى عراقة اسم عائلتها، وأحب فيها المرأة التي لم تستند إلى وضعها الاجتماعي كشيخة، أوالمرأة التي تأمر فتطاع، أو التي تطلب فيستجاب لها، أحب فيها أنها تركت كل هذا وراء ظهرها، وانطلقت معتمدة على نفسها في الحياة، تواجه المعترك، وانطلقت معتمدة على موهبتها، فصنعت من نفسها مبدعة ذات بصمة متميزة ومتفردة، وانطلقت على جهدها فتخصصت في علوم الاقتصاد، ونالت أعلى الشهادات، وتبوأت أرقى المنازل والتقديرات.

أحب سعاد الصباح التي آمنت منذ أن أمسكت بالقلم لتخط أول قصيدة، بأن الكلمة لا تشيخ، ومن يمتهن الكلمة لا يشيخ، أحب سعاد الصباح التي علمت المرأة الكاتبة، أننا نحن الكتاب كالأشجار الضخمة، لا تتوقف جذورها عن النمو، ولا أوراقها عن التفتح، أحب سعاد الصباح كما أحب كلماتها البليغة، معبرة عن خلود الكلمة وصاحبها، وخلود الإبداع ومن يكتبه، وهي تعبر في الوقت نفسه عن قيمتها وقامتها، كشجرة وارفة باسقة لا تتوقف جذورها عن النمو، ولا تتوقف أوراقها عن التفتح.

ومن منا لا يحب سعاد الصباح؟، تلك الشجرة التي تفتحت أغصانها على الدنيا، بعيون تتطلع منذ اللحظة الأولى إلى المستقبل، فكان دأبها في كل خطوة تخطوها، في كل إنجاز تصنعه، أن تعبر عن هويتها العائلية بتواضع، وعن هويتها الثقافية بتحضر، وعن هويتها الشعرية بقدرة واقتدار، لتتشكل في النهاية صورة امرأة كويتية وخليجية وعربية، استثنائية.

كانت الأحداث في زمن مولدها جساما، تنطلق جميعها من جعبة واحدة، وباتجاه هدف واحد، من الظلمة إلى النور، ومن الأسوار إلى الحرية، ومن الضغط والكبت والقهر إلى البوح والحرية، وكأنه ترتيب قدري له دلالة، تعبر عن الهدف الأسمى الذي سعت إليه سعاد الصباح منذ بداياتها، وإلى تعميقه في كل ما قدمت وأنتجت.

ولن ينسى التاريخ حين واكب مولدها إقامة أول مؤتمر نسائي عربي لمساندة الشعب الفلسطيني، وحين أصدر طه حسين كتابه الهام «مستقبل الثقافة»، الذي دعا فيه إلى تواصل الثقافة العربية بثقافات دول العالم، وقد كان النبراس الهادي والباب الذي فتح ذراعيه لتواصل المجتمع العربي بأثره مع الغرب.

ولن ينسى التاريخ حين واكب مولدها ذلك البيان الذي أصدره فنانو العالم العربي، تلبية لنداء أندريه بريتون رائد الحركة السيريالية من أجل فن حر مستقل،

لمواجهة الردة الرجعية في العالم، والتي نتج عنها كبت الطاقات الفنية الخلاقة، وكان على أثره أن ظهرت مدارس فنية جديدة على مستوى الكلمة والإبداع والفن التشكيلي في العالم العربي.

ولن ينسى التاريخ كيف كانت الحياة بسيطة على مستوى الكويت محليا، وأراد الله أن يكون مولدها مواكبا لتطوير هذه الحياة، فقد تم إنشاء العشرات من محطات تقطير المياه، وتم اكتشاف حقل الروضتين وحقل الشقايا الغني بالمياه قليلة الملوحة، إضافة إلى حقل الصليبية القديم، وأقامت دائرة الكهرباء والماء احتفالا بذلك الاكتشاف وأطلق عليه «يوم الماء».

ومع مولدها بدأت حركة عمران واسعة في الكويت، بعد أن كانت معظم البيوت طينية بسيطة، وعند سقوط المطر يلجأ الكويتيون إلى الاحتماء داخل بنايات المدارس، وهدمت المنازل الطينية وحلت محلها أبنية حديثة من الطابوق أو الأسمنت المسلح، ومع مولدها أنشئ مصنع الطابوق الجيري في الشويخ، وأصبح ينتج كميات هائلة من ذلك الطابوق استعملت لبناء تلك المساكن.

ولدت سعاد الصباح فنسجت بإحساسها أجمل الكلمات، وأبدعت في وصفها الصور والتعبيرات الأكثر رشاقة، وهي اسم غني عن التعريف، لا يوجد وصف لامرأة تركت بصماتها في كل مكان، أبلغ من أنها المرأة المبدعة الشاملة، التي ارتبط اسمها بالشعر والنثر والآداب والعلوم، وهي المرأة التي عرفت بدعمها للمواهب والطاقات الشبابية في مختلف مجالات العلم والمعرفة، وهي المرأة التي ظل مشوارها مميزا ونجاحاتها لا تغيب.

إن بعض لمحات من حياتها الحافلة بالعطاء . والتي لا تتسع مثل هذه المساحة لكل إنجازاتها وإسهاماتها وإبداعها في أكثر من مجال . لتؤكد أنها ولدت طفلة تغفو على كتف كتاب، وتصحو على هفهفات نخيل، وقد أزهرت الأرض بوجهها الطفولى،

حين دبت بدايات التفتح على الحياة، والانتماء إلى الأماكن والناس، ترتب أوراق الذاكرة، وتتزود بوقود الإيمان، وتشرب ماء الحب، فتصبح هادئة كهدوء البحيرات.

ولم يكن ضربا من اللعب بالنار، أن تختار تخصصا علميا حين كبرت، وحين غابت عن أفكارها قطع اللعب والحلوى والمراجيح، أو ربما يكون التخصص هو الذي اختارها، ليصبح واقعا جميلا تعيشه، وقد كانت تحلم بمسار مختلف.

في جامعة القاهرة العريقة كانت تحلم بدراسة التاريخ، لكن القدر أخذ بيدها للاقتصاد، كثير منا يحلمون بأشياء لا تتحقق، ويختار لهم القدر ما هو أجمل، ويتردد صوتها داخلي حين تقول: كان لدراسة البكالوريوس نكهة، وكنت أدرس الاقتصاد، وفي الوقت ذاته أتعلم الحياة، وأنا أستند إلى كتف زوجي صديق العمر رحمه الله.

ولأن وجود الشخصيات أمر مؤثر في تحديد معالم الطريق للمسيرة التعليمية، سواء كانوا معلمين أو أقارب، فقد كان الأستاذ الأول لها هو والدها الشيخ محمد صباح الصباح، كان بهجة الحياة البكر، بينما زوجها الشيخ عبدالله المبارك كان هو الشخصية المحورية في حياتها، فقد ترك بصماته على جسد حياتها، وكان عطره ملتصقاً بذاكرتها، وسيظل.

مدرسة الخنساء بالكويت كانت من المحطات الفارقة فى مشوارها، حيث تلقت علومها الأولية، وفي ثانوية المرقاب للبنات بالكويت استكملت المسيرة، ثم اقترنت وهي بالمرحلة الثانوية بالشيخ عبدالله مبارك الصباح، نائب حاكم الكويت والقائد العام للجيش والقوات المسلحة وقتها، وبعدها بثلاثة عشر عاما، بالتحديد في عام 1973م حصلت على البكالوريوس في الاقتصاد، مع مرتبة الشرف في كلية الاقتصاد بجامعة القاهرة، ثم حصلت على درجة الدكتوراة في الاقتصاد والعلوم السياسية في جامعة ساري جلفورد بالمملكة المتحدة، وهي أول كويتية نالت

شهادة الدكتوراه في الاقتصاد باللغة الإنجليزية، وعنوانها «التخطيط والتنمية في الاقتصاد الكويتي ودور المرأة»، وقد ترجمت إلى العربية.

أكدت هذه الدراسة ضرورة اعتماد منهج التخطيط طويل المدى، سعيا إلى تحقيق هدفين مرتبطين ببعضهما البعض، الأول إعداد إطار عام للتخطيط الإنمائي في ظل اقتصاد يعتمد على النفط، ويستند إلى ضرورة إقامة قاعدة اقتصادية متوازنة، وقوى عاملة متوازنة أيضاً، والثاني يقدم تحليلاً إحصائياً تسجيلياً لموقف المرأة العاملة في مسألة الالتزام بالعمل.

وقد منحت درجة الزمالة من كلية سانت كاترين بجامعة أوكسفورد المتخصصة في العلوم السياسية والاقتصادية وشؤون الشرق الأوسط، وبذلك تعتبر أول امرأة عربية من الشرق الأوسط يتم انتخابها لدرجة الزمالة بجامعة أوكسفورد لأعمالها الإبداعية، ولمكانتها العلمية.

كيف لا نحب سعاد الصباح، وقد ظلت رغم انشغالها بالثقافة والإبداع وبتخصصها فى الاقتصاد، تحمل الهم الوطني، والحزن العربي، وتهتم بحقوق الإنسان وحرية الرأي، وتناضل من أجل الدفاع عن المرأة، ومن أجل المشاركة في بناء الحياة والمستقبل، إلى جانب دفاعها عن حق الإنسان في الحياة والحب ومخاطبة إنسانية الإنسان؟.

شاركت في معظم المؤتمرات الخاصة بالمرأة والطفولة، والمنتديات والمهرجانات الثقافية والشعرية في الكويت، وعلى امتداد الوطن العربي، كما ساهمت مساهمة فعالة في خدمة الحركة الثقافية والفكرية من خلال الدعم والمساندة من أجل واقع ثقافي أفضل، فهي تؤكد دائماً أن الثقافة والشعر رسالة إنسانية، وأن الشاعر والأديب هو مرآة صادقة لواقعه الاجتماعي والثقافي والإنساني.

كيف لا نحب سعاد الصباح وقد قامت بإحياء التراث الأدبي المعاصر، عندما أعادت طبع مجلة الرسالة المصرية التي كان يرأس تحريرها الكاتب أحمد حسن الزيات، كما خصصت ثلاث جوائز للشباب، الأولى جائزة الشيخ عبدالله المبارك الصباح للإبداع العلمي بفروعه المختلفة، والثانية جائزة سعاد الصباح للإبداع الفكري بفروعه المختلفة، والثالثة جائزة لشباب الأرض المحتلة، كما أسست دار سعاد الصباح للنشر والتوزيع في الكويت والقاهرة، لتشجيع الإبداع بين الموهوبين العرب، ولفتح الطريق أمام المواهب لتأخذ حظها في الظهور في عالم الكلمة، وتنظم المسابقات الأدبية والوطنية، وتمنح الجوائز في مجال الشعر والقصة للأدباء الشباب، كما تواصل تكريم رواد الثقافة في الكويت وخارجها، ومن أبرز هؤلاء المكرمين المفكر الكويتي عبدالعزيز حسين، وشاعر البحرين إبراهيم العريض والمفكر التونسي د. الحبيب الجنحاني ونزار قباني وثروت عكاشة وعبدالله الفيصل وغيرهم.

ولعلنا إن أسلمنا أنفسنا إلى تأمل مشوار مبدعتنا بما فيه من إنجازات، فلن تكفينا الصفحات، فقد تناولت مختلف المشاكل المعاصرة، والقضايا الوطنية على المستويين الإقليمي والعالمي في العديد من المقالات الأدبية، والسياسية، والاقتصادية، والقصائد الشعرية، التي نشرت في العديد من الصحف والمجلات المحلية والعربية، داخل العالم العربي وخارجه، لن تكفينا الصفحات، للإشارة إلى بعض خطوات ترجلتها على مهل في هذا المشوار.

لقد أحببت سعاد الصباح امرأة مهذبة للغاية، هكذا نشأت وكبرت، ولأنها امرأة مهذبة، فهي تحتفظ داخلها دائما بشحنات الغضب والرضا والحلم والأمل والحزن والفرح والشجن، دأبت على أن يكون لبوحها بمخزون مشاعرها مواسم وطقوس، لا تبادر بالإبحار إلا في هدوء يماثل هدوء نسمة خجلى، وتنتصر لغضبها

بابتسامة، فتشم عبير دماثتها وتستنشق هواء رقتها، فلا تجد مفرا من أن تبادلها تلك الرقة، حتى وإن كنت تسير على قضبان الإبحار ضد التيار.

ظلت الابتسامة طوال تاريخها هي عنوانها، لا تعرف التصنع أو التكلف أو المجاملة، ظلت الابتسامة عنوانها في أحلك اللحظات، هي المرأة الجميلة ذات الهيبة والأنوثة وهي المبدعة وهي الحماة والأم والابنة والزوجة والأخت، وهي المرأة التي تهمس لنفسها كل ليلة، لا شئ يبقى إلا القصيدة.

سعاد الصباح امرأة اختلط بعظمها ولحمها دم القصيدة، وزيت اللوحة، ونفط الاقتصاد، امرأة صاغتها الأقدار عبر تجارب حياتها، فبدت امرأة قوية تخفي ضعفها، لا تستسلم لقسوة الحياة، وإن فرضت عليها الوحدة، فعاشت حياتها ترتدي عباءة ضعف امرأة قوية.

سعاد الصباح امرأة ظلت مستمسكة بعروتها الوثقى، حريصة على أن تكون أنوثتها هي عنوان كيانها وكتابتها، تحفظ تاريخ أنوثتها، ترفض الاعتداء على خصوصيتها، أو من يحاول اقتحام صيغتها الخاصة التي أرادت أن تكون عنوانها.

سعاد الصباح امرأة بلا تفاهات، ولهذا ظلت في الذاكرة، وفي القلب، وفي الوجدان، تعشش كطائر لا يتوقف عن التغريد، شعرا ونثرا وعلما، في كل وقت وحين، تنسج ليلها مطرزا بالإحساس، ومغزولا بالمشاعر.

سعاد الصباح امرأة مسافرة دائما، ليس بقطار أو طائرة، إنما في الكلمات والمعاني الإنسانية، في الانتماء الحميم لأسرتها ووطنها، هي شيخة كويتية من الأسرة الحاكمة، لكنها امرأة بسيطة متواضعة، لا تشعر بالفرق بينها وبين الناس.

تستقر في وجدانها فلسفات الحياة، فترى أن السفر مدرسة للعقل والروح، حين يسمو عن كونه مجرد تسلية، وقد منحها ثروة كبيرة في فهم الطبيعة والتعرف

على نفسيات الشعوب وتاريخها، وفي اكتناز معرفة واسعة بالإنسان وثقافاته متعددة الوجوه والسبل، كان السفر ولا يزال معينا من المعرفة لا ينضب، وقد أغنى تجربتها الإنسانية، كما أغنى مخيلتها الشعرية، وعمق إحساسها الإنساني وجعلها تحس قرابة روحية مع الإنسان الآخر.

سعاد الصباح امرأة تتحرك في خفة غزال، عاشقة للأسفار، تدب خطوتها على الأرض رويدا رويدا، ولا يحبسها في مكان سوى كتابة قصيدة جديدة، لقد كانت رحلاتها دائما غنية بأهدافها الإنسانية في طلب العلم أو حضور المؤتمرات والمشاركة في المنتديات الثقافية.

سعاد الصباح بعد كل تلك التداعيات والمحطات المتنوعة في حياتها، لا تزال تقف سيدة شابة تجيد فن الإصغاء والإنصات، في بحر متلاطم من الأفكار والثقافات وتنوع التجارب والبيئات، سعاد الصباح امرأة مقتحمة، تقتحم بإنسانيتها قبل قصيدتها العقول والقلوب، لكنها لا تسمح لأحد باقتحام حنانها مع أولادها، ولا تلبث أن تعلن عن مذاقها الخاص ليراها الناس على حقيقتها، ليست إعصارا من مطر وكحل، إنما هي كما كل امرأة، أنثى تحتاج أحيانا إلى كف صديق وخيمة دفء.

إني أحب سعاد الصباح، وأثق أن ما أقوله لن يقع في فخ ما قاله د. طه حسين يرحمه الله حول أن الثناء الخالص الذي لا يشوبه النقد، إنما هو كالماء الذي أذيب فيه كثير من السكر، وتوشك إن أسرفت في شربه أن يأخذك الغثيان.

أقول ما أقول لأني أحمل مشاعر طيبة لسعاد الصباح، وإلى آل الصباح الذين لم يتعاملوا يوما مع الناس باعتبارهم من أصحاب الدم الأزرق، والدم لا يكون أزرق ولا أخضر ولا أصفر وإنما يكون دما إنسانيا، ودم الإنسان هو هو في كل زمان ومكان، وهو في إنجلترا كما في بنجلاديش وفي استوكهولم كما هو في الكونغو، وفي نيويورك كما هو في باريس كما هو في الكويت.

كانت الطريق وعرة، لكنها على خشونتها وقسوتها أكسبتها سموا وتواضعا وخنوعا للخالق سبحانه، وتقديرا لعباده، لم يكن تعاملها مع الناس على اختلاف مشاربهم، مبنيا على قناعتها بأنها تنتمي إلى فصيلة آدمية من صنف مميز، تسمو على فصيلة الدم الذي يجري في عروق سواها، بل كان مبنيا على قناعة بأن عناصر النبل والفضيلة لا تكون متوارثة بقدر ما تكون مكتسبة في شخصية الإنسان، حين يكتسبها من الواقع الذي يعيشه بحكم طبيعة الأشياء وسنة الكون.

سعاد الصباح التي يراها البعض تلك الطفلة المدللة بكر الشيخ محمد الصباح، لم تكن كذلك، ولم يكن الدلال يوما سبيل الاستكانة أو الراحة، لأن النفوس الكبيرة تتعب بالراحة وترتاح بالتعب، وقد عرفت ذاتها منذ مطالع الوعي، وأدركت أن عليها واجبا يتجاوز هذه الذات، لتكون جسر خير ومحبة، وصوت علم وثقافة، وقد جاهدت في سبيل ذلك كله، وسارت الطريق من أولها الى آخرها، أدركت أن السلم لا يتكون من درجة واحدة، مهما علا، بل هو سلسلة من الدرجات، على الإنسان أن يجتازها الواحدة بعد الأخرى، حتى يحقق ذاته، فيكون بذلك قادرا على تثبيت القدمين في الموقع الذي يصل إليه.

عاشت سعاد الصباح حياتها ولم تعرف الراحة أو الدلال، مشت مسافات طويلة، بالحزم والعزيمة والمثابرة والإصرار، حتى تحقق لها ما تحقق بفضل الله، لم تكن الطرق مفروشة بالورود، فالورود هي أيضا توأم الأشواك، وقد عاشت بين جدران بيئات مختلفة أكسبتها الخبرة، ومنحتها القوة والثقة، علمها بحر الحياة المتلاطم الأمواج أن الأفكار تولد، وأن الإنسان يشق الصخر بالإصرار والعزيمة.

نشأت سعاد في حضن عائلة مثقفة، متزنة، محافظة لتقاليدها ومكانتها التي حباها الله بها، خالية من الهزات والمطبات التي تزيل الاستقرار وتشتت الأمن والأمان، كان الوالد معلهما الأول الذي علمها القراءة والكتابة، وبذل جهده لينمي

ثقافتها العامة، يحمل لها كل حين ما صدر من مجلة «عالم المعرفة»، وغيرها من المجلات الثقافية، لتزداد رونقا وتألقا بالعلم والقراءة.

وكانت والدتها ينبوع المعارف التاريخية، أفادتها من قراءاتها للكثير من الدوريات والمؤلفات، وفي مقدمتها كتب جورجي زيدان، دون أن تقصر في التنشئة السليمة لتكون سيدة في دارها، وامرأة لا يشتم منها إلا عبير أنوثتها المعجونة بالخلق الحسن والشيم الجميلة.

البيت الذي نشأت فيه كان عشا من أعشاش المحبة، وحديقة من الحنان والرحمة، ولم يكن للاضطهاد به مكان، ولا للخوف والإرهاب نافذة، تسوده المعاملة العادلة بينها وبين أخيها الذكر، لا فرق بينهما، فكانت النشأة رصينة متزنة، علمتها كيف تحب الإنسان وكيف يكون صديقا لها، على اتساع الأرض في مدى مشارقها ومغاربها.

وكبرت الطفلة سعاد لتصافح العيون، كنخلة عربية شامخة، كان عطاؤها الملح الذي يعطي للحياة مذاقا، فصنعت من عطائها أحلى مائدة في رحلة الحياة، وهي الآن أم وجدة وحماة، لم تسقط في فخ الاحتماء بنون النسوة، بل ظلت تحافظ على كبرياء المرأة التي يحركها عقلها الأبي، المتمرد في جمال ورقي وشجن نبيل، وتنقل هذه الشيم إلى أبنائها.

كبرت سعاد لتصبح شيخة كويتية، تشعر بالفخر لأنها بنت الكويت، وتختال بوصفها بدوية، تتغنى دائما بالصداقة وتؤمن بأن الرجل مهما سافر أو رحل، فهو يعود ليستريح على مخدة صدر المرأة، والمرأة داخلها تعلم جيدا مفردات الزمن، ومتى تشتاق ومتى تحجم ومتى تقبل ومتى تتلهف، كما تدرك تماما في الوقت نفسه، أنه لا يوجد توقيت شتوي للمشاعر، أو توقيت صيفي للأشواق، وتدرك أن الحب انقلاب في كيمياء الجسد، ورفض شجاع لروتين الحياة.

كبرت سعاد لتتعلم كيف تعامل الرجل باحترام، ولتتعلم كيف ومتى تعلن ضعفها الأنثوي بقوة، ولتتعلم كيف تحصن قلبها من الإصابة بضربة حب، وتحصن جسدها من طعم الغربة، وتحصن ثوبها من الانشغال بخيوط اللهفة، وكيف تظل زهرة برتقال، تنزع من معصمها أساور الخوف، وتتخطى بجرأة تقاليد العشيرة، مؤمنة بأن الرجل يعاني أحيانا من عقدة تفوق المرأة، وتناديه يا من تعقدك انتصاراتي، وتكره أن ترى حولي ألوف المعجبين، يا من تخاف تفوقي وتألقي وتخاف من عطر الياسمين، هل ممكن أن يكره الإنسان عطر الياسمين؟.

عاشت سعاد تحمل حبا صادقا لكل من حولها، ولأنها الإنسانة التي تحمل حبا، لم تخلع من عنقها اسم الجلالة وآية الكرسي التي طوقها بها الشيخ عبدالله منذ ثلاثين عاما، ولا تزال تحتفظ بها في جيدها، كأثمن هدية تحفظها، وتقوي إيمانها بقضاء الله وقدره.

الآن أحب في سعاد الصباح صورة الحكمة وخبرة العمر، أحب هالة الوقار التي تحيط بها، روحا ووجها وجسدا، أحب سعاد لوحة فنية نصفها قلق، حين تتصل بأبنائها المسافرين لتطمئن عليهم وتتابع أخبارهم وتوجههم لما فيه صلاح الحال، وتظل أجمل أعيادها حين يجتمعون بين يديها ثانية، أحب سعاد حين تأخذ بيد الصبر على ما تأتي به الأيام من نوائب الحياة، تلك الحياة التي تغيرت كثيرا عما مضى من العمر، أحب سعاد وهي تتحدث بلغة النثر ولغة الشعر ولغة الحياة، ولها أناقة في كل لغة، وهي دائما قائمة في محرابها تصلي بالكلمات الناطقة حكمة وعلما، وهي دائما تقف على أرض الحقيقة، دون مواربة ودون مجاملة، لا تخشى أن تتحول كلماتها إلى نقوش على وجه الماء.

أحب سعاد كما هي، فما أجمل النبتة التي نبتت في أرض خير، وترعرعت في أرض خير، وأنبتت وازينت بكل الخير، ومن باب الخير سنظل ننظر إلى المنجز

القومي والعروبي الذي قدمته سعاد الصباح في الدفاع عن البيت العربي، ثقافيا وفكريا وحضاريا، وإلى ما قدمته سعاد الصباح من أجل مستقبل الأمة العربية.

ولكم تحياتي،،،

الدكتورة فاطمة يوسف العلي

****